الجرس!

كان إغلاق الشقة بالقاهرة والعودة إلى البلدة بالصعيد أمراً فرضته عليه والدته بعد أن توفى والده، خاصة أنه أنهى تعليمه منذ عامين ولم يُعيّن بأية وظيفة بعد، وفى البيت القديم هناك قرر أن يجعل الدور الأرضى منه كتّاباً يقوم فيه بتحفيظ أبناء النجع القرآن، لأنه يجيد التلاوة ويملك صوتاً جميلاً، ولم يفته أن يخصص حجرة للمكتبة ليمارس هواية القراءة، أو التأليف، لقد مرت سنوات لم يكن فيها جديد غير وفاة والدته، فانطوى على نفسه، وازداد شعوراً بالوحدة والانكسار.

لكن الأقدار شاءت أن تسوقه حيث كان، وتُحقّق له رغبةً طالما تمناها، حيث صدر قرار تعيينه مُعلّما، وفى ذات المدرسة التى كان طالباً فيها، إنه حلم لم يكن يتوقع تحقيقه، لم يصدق أنه سيصبح زميلاً لأستاذه عبد العزيز، الذى يُنسب كلّ الفضل، حين كان يشجعه، ويدفعه للاطلاع، ويعلمه كيف يقرأ؟! ولمن يقرأ؟! جاء اليوم الذى سيقف فيه أمام الطلاّب، ليمارس رسالةً حملها طواعيةً وعملاً كُلِّف به.

إنها مدرسة طلائع المستقبل التى شهدت أروع الذكريات، وجمعت أعز الأصدقاء، لم تكن قريبة من البيت، لكن السير إليها لم يكن شاقّا، فى الطريق العديد من المنازل، والكثير من الفلل القديمة والأشجار، وبالقرب منها السينما، التى كان يتعرف على برنامجها الإسبوعى كلما مرّ عليها، ويحرص على الذهاب إليها يوم العطلة، بعدما يدبّر من مصروفه كل يوم..يشاهد حينئذٍ ثلاثة أفلام فى بروجرام واحد، فيلم عربى قديم بالأبيض والأسود، وفيلم أجنبى، وفيلم عربى حديث، كانت متعه تجدد نشاطه وتضيف إلى ثقافته.

ما زال يذكر فناء المدرسة وملعبها الذى يرمح فيه الخيل، والمبنى الرئيس الذى يشبه القصر؛ بل كان قصراً بالفعل يسكنه أحد الأمراء قبل ثورة يوليو ، فى الدور الأول حجرة الناظر، وحجرة الوكيل، والمكتبة التى طالما استعار منها، وجلس فيها للقراءة، وفى الدور العلوىّ حجرة التربية الموسيقية..كم ردد فيها مع زملائه الأناشيد والأغانى الوطنية لسيد درويش وعبد الوهّاب وأم كلثوم، إن صداها الآن يتردد "قوم يا مصرى مصر دايماً بتناديك، خد بنصرى، نصرى دين واجب عليك..."..."حب الوطن فرض علىّ أفديه بروحى وعنيىّ..."..."وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى ، وبناة الإهرام فى سالف الدّهر كفونى الكلام عند التحدّى..." ، وحجرة التربية الفنية التى كانت معرضاً للوحات الطلبة الموهوبين، لم يزل يتذكر لوحتين عُلّقتا له على جدرانها، لوحة تُجسد الوحدة العربية، ولوحة تعبر عن الربيع، كم اشتاق لرؤيتهما!

وعم خلف فراش المدرسة ذو الجلباب والعمّة الرجل العجوز، هل ما زال حيّاً؟! ولا يزال يدق الجرس النحاسىّ المعلّق على الحامل الخشبىّ أعلى السور! لم ينم ليلته كما ينبغى، كان أرِقاً كالطفل ينتظر فجر العيد، حرص على تجهيز ملابسه وإعداد حقيبته، انطلق قبل موعده بكثير، وسار فى نفس الطريق الذى كان يحلو له السير فيه وهو يحمل حقيبة المعلم لا حقيبة الطالب.. ظل يؤرجحها للأمام والخلف مثلما كان يفعل وهو يتلفت نحو المنازل ويتفرسها، شدّ انتباهه ارتفاعها و ألوانها المختلفة، ليست هى التى كان يراها، ولا يعرف هل الطريق صار ضيّقاً؟! أم أن جسده هو الذى صار متضخماً؟! لم يشاهد بيتاً من البيوت التى ألفها، اختفت الأشجار والفلل القديمة.

تذكر موقع البيت الذى كان يسكنه زميل دراسته وصديقه أمير، فدفعه الشوق ليسأل عنه بوّاباً جالساً أمام العمارة المقابلة، فأجابه بثقة: لا يا ولدى مافيش حد ساكن هنِه بالاسم دِه واصل.

واصلَ سيره واقترب من ناصية السينما، ما هذا؟! خراف وماعز وتلال من القمامة أمام مدخل السينما، الباب شبه مُحطم والتراب يعلو الجدران، والأفيش مُمزق وقديم جداً، يبدو أنه حلّت علي السينما لعنةُ آخر فيلمٍ شاهده فيها "الأطلال".

هرول نحو المدرسة، وكأنه يريد أن يلوذ بها، وقف أمامها، فانتابته هِزّة بمجرد أن وقعت عينه عليها..أين المبنى الرئيس الذى كان قصراً؟! لقد حلّ مكانه مبنى خرسانى ضخم بلا ملامح..ربما ليست هى المدرسة، لا.. بل هى اللافتة تقول ذلك! أراد أن يتأكد من الواقف خلف بابها، فأجابه: يا أستاذ أنا فراش المدرسة وعارف بقول إيه!

قرر أن يدخل وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، اتجه نحو الفناء،فاصطدمت عينه بمبنيين آخرين ابتلعا فناء المدرسة، فضّل أن يُسرع بالسؤال عن الأستاذ عبد العزيز ، لكن منْ يسأل؟! حالة من التخبط والهرج من المعلمين والطلاب تسود المكان، وأخيراً توجه بسؤاله للفراش ذى القميص والبنطلون فأجابه بدهشة: ياه ! الأستاذ عبد العزيز!..اسمع عنّه..واللّى أعرفه إنه طلع على المعاش من زمان.. تقريباً فى نفس السنة اللى هدّوا فيها المبنى القديم وجددّوا المدرسة!، لكن من ساعتها ما حدش يعرف عنّه حاجة..الله أعلم إذا كان ميت ولاّ حىّ؟! فردّد متمتماً: على المعاش!..وهدّوا المبنى القديم!

ثمّ عاجله بسؤال آخر: طب وعم خلف؟! فأجابه وهو يقبض على كرسيه ويغرسه فى الأرض لتستقيم عليه جلسته: تعيش أنت يا أستاذ!

انزوى جانب السور حاملاً فراغاً شديداً فى نفسه كان يراه من قبل فى فناء المدرسة وملعبها، والاضطراب لا يزال يحوطه والضجيج يلاحقه، لقد فرض ذلك الزحام على عينيه وتلك المبانى الخرسانية حظر تجول!

اتجه برأسه نحو السور.. إنه سور المدرسة القديم، الشئ الوحيد الذى بقى من ذكريات تؤكد له أنّه لم يفقد ذاكرته بعد!، تحررت عيناه بعض الشئ، فانطلق بنظره عبر امتداد السور باحثاً عن صوتٍ مفقود، إنه الجرس، نعم إنه هو!..لم يزل مُعلّقاً هناك عند الزاوية..أسرع مهرولاً نحوه، ثبت أمامه، رفع رأسه كالخاشع يستقبل قبلته، علت دقّات قلبه حين رآه مصلوباً على الحامل الخشبىّ المتآكل، غارقاً فى الصدأ، لقدانطفأ اللّون النحاسى، وذهب الصوت مع الريح، لكن أين؟!..وكيف؟!

دار رأسه لم تعد عيناه تبصر شيئاً غير كل ما يقبع الآن فى نفسه، أسند ظهره على السور كالمغشىّ عليه..وفجأة انتفض جسده فزعاً مع دوىّ الجرس الكهربىّ الذى ظلّ نفيره يخترق الضجيج ويدوّى فى أذنه..فتذكر قرار القيام بالعمل الذى لم يعد يعرف هل يقدّمه؟!..أم يرجع لكتّابه فى النجع؟!